أمة الحضارات والجهاد

تأليف

الفريق عفيف البزري

الفصل الخامس

اتحاد جمهوريات المستضعفين الثوار

العرب

ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الـوارثين، ونمكن لهم في الأرض .

صدق الله العظيم

جغرافية منطقة التوحيد

قبل كارل ماركس بخمسة قرون قال ابن خلدون في مقدمته: "إن اختلاف الأجيال فـي أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش". فعلاقات الإنتاج وأشكال تداول القيم والثروات، أي العلاقات الاقتصادية بأعم أشكالها، المتكافئة وغير المتكافئة، القائمة بالتراضي أو بـالقهر والاغتصاب بالقوة الغاشمة التي تحكم المجتمع، تبين لنا بحسب هذا القول أحوال المجتمع فـي كل طور من أطوار جملة المجتمعات الإنسانية. إلا أنه في كل الأطوار التي مرت بهـا هـذه الجملة كان للخواص الجغرافية للبلاد: لثرواته الطبيعية ولموقعه وإقليمه مع مختلـف علاقاتـه بالبلاد الأخرى وشكل هذه العلاقات، آثار حاسمة على أحواله الاقتصادية، إيجابية أو سـلبية. إن منطقة المشرق العربي مثلاً بموقعها في العالم القديم (قبل اكتشاف أمريكا واستراليا) كانت تشكل سوقاً تلتقي فيه منتجات هذا العالم ليجري تبادلها فيه. واليوم لها الموقع ذاته بالإضـافة إلى ما اكتشف فيها من ثروات نفطية وبالإضافة إلى ما تطور وتكاثف عبرها وحولهـا مـن علاقات دولية. فكانت لذلك على الدوام وما زالت في إحدى حالتين لا ثالث لهما على العموم: إما مركزاً رئيسياً من مراكز العالم الحضارية إن لم نقل المركز الأول في أعقاب كـل ثـورة من ثوراتها الإنسانية الكبرى وخاصة منها الثورة الإسلامية العظمى، وأما تابعـة لمـستعمر ينهب ثرواتها ويقهر أهلها ويستغل موقعها ليمارس عدوانه على البشر الآخرين في كل جاهلية ووثنية تتفشى فيها. وللنظر عن قرب إلى هذه المنطقة فنستعيد بعض ما كنا كتبناه عن أهميـة موقعها وضخامة ثرواتها في عدد من الدراسات وعلى الأخص منها مقدمة بحـث "إسـرائيل والمياه العربية". ذلك لأن فلسطين، المسرح الرئيسي للأحداث التي يتناولها بحثنا الحالي هـي عقدة رئيسية في منطقة المشرق العربي. ثم إن هذه المنطقة كانت وما تـزال الأقـرب إلـى المواصلات العالمية بالإضافة إلى غناها المحلي لذلك كانت على الدوام هدف سـباق مـستَعر وموضع صراع عنيف بين أقوامها للاستقرار في أجزائها الخصبة منذ أقدم عصور التاريخ.

1- مصر:

تتضمن ست مناطق هي: الصحارى الشرقية والجنوبية والغربية، ووادي النيل الممتـد من أسوان حتى رأس الدلتا عند القاهرة ويشكل مصر العليا، والدلتا التي تشكل مصر السفلى، وسيناء.

وتقع الكثافة السكانية في المنطقة الزراعية في وادي النيل والـدلتا، القـسمين اللـذين يشكلان فقط 3.5% من المساحة الكلية للقطر. ولكن هذه المنطقة الزراعيـة لهـا خـصوبة مدهشة لا تضاهيها بها أية منطقة أخرى من العالم فهي تعطي أكثر من خمـس مواسـم فـي السنتين. وقد كان فيضان النيل قبل تنظيم جريانه بالسدود يجدد خصوبة الأرض بمـا يحملـه إليها سنوياً من رواسب الأتربة (الغرَين). ثم إن الإنسان المصري قام بحفر التـرع والأقنيـة بطول مئات الكيلومترات. ونصب على مجاري المياه آلاف الـساقيات (النـواعير)، وحفـر الآبار، واستصلح المساحات الواسعة من الأراضي. وتقع مصر على بحرين: البحر الأبـيض المتوسط شمالاً ويصلها بسورية والأناضول وجنوب أوروبا وشمال أفريقيا، والبحر الأحمـر ويصلها بغرب وجنوب آسيا من جهة وبشرق أفريقيا من جهة ثانية. وهـي تتـصل بأواسـط أفريقيا براً وبالنيل أيضاً، كما تتصل عبر السويس وسيناء بكل من جزيرة العرب وسـورية. وقد اشتهرت بحجر الغرانيت الذي بنى به إنسانها أهراماته ومعابده الـضخمة ونحـت منـه تماثيله الرائعة.

إن شبه جزيرة سيناء كانت تتصل بمصر عبر برزخ السويس. وهي عبارة عن هضبة غير متسقة ترتفع نحو الجنوب إلى ما يقرب من ثلاثمائة متـر. وقـد فعـل فيهـا التحـات والإنجرافات التي حصلت بالأمطار الغزيرة للعهود الجيولوجية الماضية فظهرت على سطحها شروخ عميقة. ثم إن أمطارها قليلة لا تتجاوز 150م في شمالها وهي بين 50مم و75مم فـي جنوبها. لذلك كانت الكثافة السكانية في شمالها، في منطقة العريش وما حولها، بينمـا تنتـشر البداوة في بقية أنحائها.

2- الأهليلج الخصيب:

يتألف القسم الآسيوي من الوطن العربي:

أولاً: من هضبة واسعة تشتمل على البلاد الشامية وما بين النهرين. فتحدها من الشمال جبال طوروس، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب البحر الأحمر والجزيـرة العربية والخليج العربي، ومن الشرق الهضبة الإيرانية. ويأخذ سطح الهضبة الشامية العراقية على العموم ميلاً يشير من الشمال غرب إلى الجنوب شرق. وفي غربي هذه الهـضبة يمتـد انهدام كبير يتجه باتجاه شمال جنوب ويؤلف وديان العاصي والليطاني والأردن ووادي عرابة الذي يتصل بانهدام خليج العقبة. وينخفض هذا الانهدام عند بحيرة لوط إلى أكثر من أربعمائة

متر عن سطح البحر وهو أشد انخفاض بري في العالم. كما يمتد انهدام آخـر فـي شـرقي الهضبة، يوازي الأول، ويشكل وادي الرافدين الذي ينتهي عند شط العرب حيث يتصل بانهدام الخليج العربي.

ثانياً: الجزيرة العربية وتقع على مدار السرطان وعلى خط الـصحارى الممتـد مـن الصحراء الكبرى في غربي أفريقيا إلى صحراء غوبى في أقصى الشرق الأسيوي. وهي أكبر أشباه جزر العالم فيبلغ أكبر أطوالها نحو 2500كم وأكبر عروضها 1800كم. وتتـشكل مـن هضبة ضخمة تبدأ من الغرب بسهل ضيق على البحر الأحمر لا يتجاوز عرضـه الخمـسين كيلومتراً. ثم ترتفع فجأة بسلاسل جبال تمتد على طول البحر المذكور يبلغ ارتفاع قممها حول صنعاء 3800متر وحول الطائف 2600متر، وتنحدر من ثم ببطء نحو الشرق فـي أراضـي جبلية وعرة تارة، وصحارى رملية واسعة الأرجاء تارة أخرى حتى الخليج العربي. وتقـوم فيها على خليج عمان كتلة الجبل الأخضر التي تصل ذراها إلى ارتفاع يزيد على الثلاثة آلاف متر. وتقع الأقسام المطلة منها على المحيط الهندي، بما فيها الـيمن تحـت تـأثير الأمطـار الموسمية. كما تنتشر الواحات هنا وهناك حيث توجد المياه فيها.

وكانت الجزيرة العربية دوماً عقدة طرق للتجارة التي كانت تصل بـين جنـوب آسـيا وشرقي أفريقيا وبين مختلف أقطار الشرق الأوسط الأخرى. إذ أنه حتى في أيامنا هذه نجد أن هذه الجزيرة تحتل موقعاً متحكماً على أقصر وأسهل الطرق الواصلة بين الـشرق الأقـصى ومنطقة المحيط الهندي وبين المناطق الغربية من الكرة الأرضية. ومنذ ما قبل الألف الثـاني قبل الميلاد نجد الجزيرة العربية تقوم بدور موزع (سنترال) للتجارة العالمية بـين المنـاطق الثلاث المار ذكرها قبل هنيهة. فنجد فيها الثغور العديدة وشبكة طرق القوافـل الكثيفـة: ".. ونحن نسمع عن التجارة بين العرب ومصر منذ عام 2743ق.م. وأكبر الظن أن الاتجار مـع الهند لم يكن يقل قدماً عن الاتجار مع مصر. وكانت الأسواق والمواسـم الـسنوية تـستدعي التجار إلى هذه المدينة تارة وإلى تلك تارة أخرى. وكان يجتمع في سـوق عكـاظ الـشهيرة القريبة من مكة مئات التجار والخطباء والشعراء.."، كما روت قصة الحضارة لديورانت.

إن المنطقتين الآنفتي الذكر، الهضبة السورية العراقيـة وهـضبة الجزيـرة العربيـة، تتكاملان وتشكلان كتلة جغرافية واحدة. فالهلال الخصيب الذي يحيط بالأولى حـول وديـان الأردن والليطاني والعاصي، ثم وادي الفرات والدجلة، يتصل بهلال آخـر معكـوس يحـيط بالجزيرة العربية فيسير في أراضي الحجاز واليمن في الغرب، ثم يستدير في جنوب الجزيرة إلى أن يصل إلى عمان، ويصعد شمالاً في بلاد الخليج. ومناطق هذا الهـلال هـي الآهلـة بالكثافة السكانية. وإذا كان فرعاه في الشمال قليلي الأمطار، فـإن أقـسامه الجنوبيـة، فـي حضرموت واليمنين (اليمن وعمان) تقع كما مر معنا أعلاه فـي إقلـيم الأمطـار الموسـمية

الغزيرة. ويشكل الهلالان الآنفي الذكر، في الواقع، أهليلجاً خصيباً تقع فيه كثافة السكان، وهو يحيط بالصحارى العربية: الربع الخالي، والنفوذ الكبرى، والشامية، والحماد (أرض المراعي التي لا تنقصها إلا المياه لتكون صالحة للزراعة، وفيها الرصافة وتدمر والقريتين والقلمون). وقد توضعت المدنيات الإنسانية الأولى (إلى جانب مدنيات الهند والصين) على هذا الأهليلج الخصيب وفي وادي النيل خلال آلاف السنين، بمختلف أوجه نشاطاتها المادية والروحية، فكان دوماً (ولا يزال) بموقعه يشكل مفترقاً للطرق العالمية ومنطقة لتراكم الثروات. أما الإمبراطوريات القديمة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط فكانت تقوم فيه وفي وادي النيل، أو أنها كانت تنجذب إلى هاتين المنطقتين. وعندما كانت واحدة منها تنشأ خارجه في البدء، فإنها كانت سرعان ما تنجذب إليه وإلى وادي النيل، لوقوع مركز ثقل الثراء والتقدم المادي عليهما: تركت مثلاً الإمبراطورية اليونانية موطنها الأصلي بلاد اليونان المتطرفة لتقوم في سورية والعراق ومصر.

أما الإمبراطورية الرومية، الأكثر تطرفاً في موقعها عند نشأتها، فإنها لم تعش في إيطاليا كإمبراطورية أكثر من خمسة قرون، ثم انجذبت نحو الشرق (نحو مركز الثقل)، إلى القسطنطينية حيث استمرت بيزنطة اثني عشر قرناً.

وكانت الحركة العامة للأقوام، في هذه المنطقة، أو المنجذبة إليها، تدور على الأهليلج الآنف الذكر، كما كانت وديانه وسهوله الخصبة طرقاً للقوافل وجيوش الغزو الكثيفة. وقد وقعت عليه معظم المعارك التاريخية الحاسمة، كما خرجت منه ومن مصر دعوات التوحيد، وكان المنطلق لإقامة دار الإسلام، العقد الوسيط بين مشرق الأرض ومغربها وموطن الحضارة التي لا تمييز بين الناس، موطن الحضارة الحقة التي ازدهرت فيها كل الأجناس الإنسانية.

وفلسطين هي بوابة الأهليلج الآنف الذكر بالإضافة إلى أن موقعها يفوق موقع أي قطر من أقطاره من حيث الأهمية. وما كان من الصدف أن بلغ الفنيقيون في صور وصيدا ما بلغوه في صناعتهم وتجارتهم، من الغنى، فقد كانوا في الواقع يستندون إلى فلسطين "أرض اللبن والعسل" بما كان ينصب فيها من الثروات التي حملتها القوافل من مشرق الأرض ومغربها، وبرها وبحرها، على طرقات وثغور الأهليلج الخصيب، وهي أيضاً بوابة وادي النيل على آسيا.

الموسوية تنتشر بين المستضعفين العرب

رأينا فيما سبق من البحث كيف تصاعدت ثورة الرقيق والمسخرين بقيادة موسى عليه السلام ضد نظام العبودية في مصر حتى بلغت درجة أمست معها خطراً على النظام برمته. فكان مثلاً من الطبيعي في مثل هذه الأحوال التي ظهر فيها بعض التفوق للثوار على النظام

الرجعي أن تنضم إلى الثورة فئات أخرى من المسخرين والعبيد في العاصـمة وفـي المـدن الأخرى من مصر. فرأى الفرعون أن يتدارك الأمر بالعمل على إخراج جماعة موسـى مـن مصر بالسرعة الممكنة قبل تفاقم انتشارها, ومع ذلك يمكن الظن بأنه عنـدما تمـت مـسيرة الخروج بدا للسلطات الفرعونية أن الأمر أخطر مما كانت تتوقعه، فرأت أن تعود عن أذنهـا بالخروج فتلاحق الخارجين في محاولة منها "لتأديبهم" وجعلهم عبرة لغيرهم. ولكن موسى مع قومه سبقها واجتاز الحدود إلى سيناء.

ونقرأ في سفر العدد من التوراة أن موسى أحصى المقاتلين بين جماعته فبلغوا أكثر من ستمائة ألف مقاتل. وهذا من المبالغات التي انتقدها ابن خلدون وبرهن على بطلانها فـي رده على المؤرخ العربي ابن مسعود الذي أخذ بها دون تمحيص. وقد أشرنا فيما سبق من البحـث إلى أن الغموض يكتنف أخبار المراحل الأولى للثورة الموسوية على نظام العبودية وقلنـا أن تدوين الأخبار كان وما يزال بيد من بيدهم وسائل التدوين من رسميين وأتباع لقـادة النظـام القائم. فلن يقوم هؤلاء بتسجيل كل ما من شأنه الإساءة إلى نظامهم، لذلك لا نجد فـي آثـار المعاصرين لدعوة موسى أية إشارة إلى هذه الدعوة بصفاتها الحقيقية كثورة ضد نظام فاسـد متفسخ يستعبد الناس لمصلحة قبضة من الفاسدين المتفسخين. فالمكان الذي يمكـن أن تأخـذه أخبار تلك الحركة الكبيرة في الآثار المذكورة لا يكون إلا بين أخبار الخارجين على القـانون من لصوص وقتلة وأشباههم، وبعناوين صغيرة بمقدار ما هي كبيرة وبأقل مـا يمكـن مـن التفاصيل عنها" ألم يصلب السيد المسيح مثلاً بين لصين؟.. إلا أنه تبقى وسائل أخرى لتـدوين الأخبار وهي ذاكرة الشعب والأجيال، حكايات الماضي مع ما يقترن بها من مبالغات وغيبيات وكذب. فالتاريخ في كل الأحوال، مكتوباً كان أم منقولاً عبر روايات الرواة، هو كما يقول ابن خلدون في العبارة التالية التي وردت في بحث التمهيد لعلم الاجتماع للـدكتور عبـد الكـريم اليافي:

"أخبار يتطرق إليها الكذب من نواح شتى لذلك لا يكفي مجرد النقل فيه بل لا بـد مـن عرض محتوياته على معيار العقل والبرهان وشواهد التجربة والواقـع، وقياسـها بأشـباهها لتمحيص ما خامرها من تزييف، ودلخلها من مغالط، وأنساب إليها من افتراء. وكـان لا بـد أيضاً من ربط الحوادث بأسبابها، والمعولات بعللها، فإن الظروف المتـشابهة تثمـر نتـائج متشابهة". لهذا ترانا نبذل غاية الجهد لتجريد أخبار التوراة، المصدر الوحيـد علـى العمـوم لأخبار المراحل الأولى من الدعوة الموسوية الذي كتب بالاستناد على ما تناقلته الأجيال خلال العديد من القرون من روايات حول هذه الدعوة، نقول لتجريد أخبار التوراة مـن المبالغـات والغيبيات والتحريف وغيره من ظلمات ساترة للحقائق.

إن الإمبراطورية المصرية كانت تضاهي بمختلف أبعادها الاجتماعيـة الإمبراطوريـة الرومية. وقد مر معنا ذكر ثورة العبيد والمضطهدين بقيادة سبارتاكوس في القرن الأول قبـل الميلاد في إيطاليا. ونقرأ في قصة الحضارة في الفصل المخصص للروم عن هذه الثورة مـا مختصره التالي:

- إن سبارتاكوس قائد هذه الثورة كان يتصف بالذكاء ودماثة الأخلاق بالإضافة إلى مـا كان عليه من شهامة وشجاعة.

- بدأت الثورة بسبعين رجلاً تحصنوا في سفوح بركان فيزوف، وأخذوا بالإغارة علـى المدن المجاورة طلباً للطعام. وسرعان ما التف حول هؤلاء الثوار كل المتعطـشين للحريـة: عبيد قد سحقهم النظام بقسوته، وأشباه عبيد يقهرهم المستعلون على الناس، وأحـرار شـرفاء أسخطهم كل ما في النظام وأصحابه من تفسخ ودناءة. فتصاعد بنتيجة هذا الوضع عدد الثوار بسرعة إلى سبعين ألف ثم إلى أكثر من مائة ألف بحيث اضطر سبارتاكوس في النتيجة إلـى رد الكثيرين من المتطوعة الذين كانوا يودون الانضمام إلى صفوف الثورة وذلـك لـصعوبة العناية بهم بحسب رواية المؤرخ افلوطرخس. ونحن نرجح أن أسباب هذا الرفض هـو عـدم انضباط أولئك المتطوعة وارتكابهم أعمالاً لا تنسجم مع أهداف الثورة.

- حدث انشقاق في صفوف الثوار فانفصل عنهم أولئك الذين يريدون البقاء في إيطاليـا والعيش فيها على النهب والسلب. أما سبارتاكوس فقد سعى إلى الخروج بالقوة مـن إيطاليـا ليذهب بعد ذلك كل ثائر إلى وطنه الأصلي وأهله بحسب رواية المؤرخ الآنف الذكر، ونحـن نرجح أن الهدف كان الذهاب بعيداً عن روما والاستقرار في منطقة يصعب علـى جيوشـها بلوغها والتغلب على الثوار فيها.

إن الحركة الموسوية ما كانت بعيدة الشبه بمختلف خواصها العامة عند قيامها عن ثورة سبارتاكوس هذه، وإن اختلفت بالنتائج عنها لاختلاف الظروف التاريخية. فموسى عليه السلام قام بتنظيم أتباعه مدة طويلة قبل الجهر بدعوته. كما أن الصراع بين أتباعه وبـين الـسلطات الرسمية دام مدة من الزمن بعد الجهر بالدعوة بحيث ذاع خبرها واكتسبت شعبية بين كل مـن كان يناله النظام بأذاه فكان أن تضخمت لذلك صفوف الثورة. فيمكن القول إذن أن عدد الـذين خرجوا مع موسى إلى سيناء هو من مرتبة بضع العشرات من الألوف: أقل من مائة ألف من كل الأعمار، وبالتالي يكون عدد المحاربين بينهم من مرتبة بضعة ألوف: أقل من عشرة آلاف مقاتل. وهذا التقدير يفسر سبب إحجام موسى عن خوض معركة ضد قوات الفرعون عنـدما لاحقته هذه إلى حدود سيناء وإسراعه في ترك أرض مصر والاحتماء وراء مياه بحر القلزم. ونجد على العموم أن موسى كان سياسياً يتصف بالصبر والأناءة، وما كان يلجأ إلى العنف إلا في حالات الدفاع ورد العدوان وإزالة العقبات أمام دعوته: في مصر مثلاً قاد نـضالاً ضـد

نظام العبودية على شكل اضرابات وتظاهرات ومقاومة عمليات القمع التي كانـت الـسلطات تمارسه ضد أتباعه بما يناسبها دون الإسراف في سفك الدماء ونشر الدمار وما شـابه. وفـي سيناء حارب موسى العمالقة الذين اعترضوا مسيرته وتمكن في النتيجة من متابعة السير إلـى أن أتى أرض ملك الأموريين حيث نجده هناك يستأذن من هذا الملك للمرور في أرضه. فمن المستبعد جداً إذن أن يكون هذا القائد العظيم على خلق وسلوك يسمحان بارتكاب تلك الفظـائع المدمرة الموصوفة في التوراة والمنسوبة إلى الجماعات التي كانت تحت قيادته. لقد سبق لنـا وقلنا إنه جرى في كثير من الأحيان التشبيه بين أتباع موسى كثائرين على النظام العام للـرق وبين الجماعات المخلة بالأمن قاطعي الطرق النهابين فنسبت أخبار هؤلاء إلى أولئك. ثم إنـه يجدر بنا ملاحظة الأمرين التاليين اللذين قاما في ظروف الأزمة الحادة التي كانـت تعـصف بالإمبراطورية المصرية وتمنع قادتها من التدخل بجدوى للحؤول دون وقوع كل ما من شـأنه الإخلال بالنظام بشكل خطير، تلك الأزمة التي كنا أشرنا إليها فيما سبق من البحث:

الأول: تضخم حجم الموسويين بما انضم إليهم من البـدو (العـابيرو) والعبيـد وكـل مضطهد هارب من النظام في المنطقة حتى ضاقت موارد سيناء الشحيحة بهـم. ونجـد فـي التوراة في عدد من فصولها ما يشير إلى هذا الأمر عندما نرى شكوى تلك الجماعة تتردد من قلة الطعام والماء وغيره من الصعوبات الناشئة عن شح الموارد تجاه تزايد العدد.

الثاني: إن وجود هذه الجماعات المتزايدة بدون توقف أخل بالنظـام القـائم فـي تلـك المناطق الفقيرة بمواردها، سيناء وجنوب الأردن، فأخـذت ريـاح الثـورة تهـب، فيـنقض المستعبدون المحليون لخلع نير الأسياد عن كواهلهم، في كل منطقة تمر بها أو تقتـرب منهـا الجماعات المذكورة، متشجعين بقربها أو مستجيبين لندائها بالثورة.

إننا نقرأ مثلاً في الفصل الثاني والعشرين من سفر العدد أن رؤساء المؤابيين تـضايقوا كثيراً من اقتراب الموسوين من منطقتهم فقالوا لشيوخ مدين جيرانهم أن "هذه الجماعات تلحس كل ما حوالينا كما يلحس الثور خضير الصحراء". وليس هذا فحسب، فملك مؤاب "بالاق بـن صفورَ" خشي من أن اقتراب هؤلاء سيشجع عبيده ومستضعفي قومه على القيام بثورة لقلـب نظامه. فحاول أن يستميل إليه "بِلْعامَ بن بَعورَ" الذي كان زعيماً شعبياً مسموع الكلمة، وذلـك على ما يفهم من الخبر الطويل الذي أوردته التوراة حول هذا الموضوع في سفر العـدد بعـد تجريد هذا الخبر من اللامعقوليات. وقد طلب إليه أن يشجب الموسويين (أن يلعنهم) كي يتمكن من الانتصار عليهم وإبعادهم عن أرضه (كي يتمكن من تسويد سمعتهم بين أفراد شـعبه ورد دعاياتهم فيبتعدوا عندما يفشلون في استمالة هذا الشعب لمناصـرتهم والاسـتجابة لنـداءاتهم بالانتفاض على الأسياد. وذلك لأن اللعنات بالمفهوم الكهنوتي التوراتي لا يمكن أن تفيـد فـي إبعاد الأعداء، إذ لو كانت فيها فائدة لتحقيق مثل هذه الأمور لاكتفى صهاينة التوراة بها عـن

كل المذابح التي ارتكبوها). ونستخلص في النتيجة أن صفوف الثورة الموسوية تنامت كثـورة سبارتاكوس وكل ثورة أخرى على العبودية في ظروف مناسبة، ولكن اسـتراتيجيتها قامـت أساساً على "نسف" نظام الإمبراطورية المصرية والإمبراطوريات الأخرى التي كانت قائمـة في المنطقة العربية الموصوفة أعلاه بإثارة الرقيق والأحرار المستضعفين وكل إنسان يناصر هذه الفئات ويشجب الظلم النازل بها في كل مدينة من بلاد المنطقة بتشجيع ومـساندة كتائـب الأسباط: كان المستضعفون في كل مدينة يشكلون، كما سنرى فيما يلي من الدراسة، حـصان طروادة كتائب الأسباط.

وتتضح هذه الصورة التي نعرضها هنا في الفصول الأولى من سفر يشوع. فنقرأ مـثلاً في الفصل الثاني من هذا السفر أن عميلين أرسلهما يشوع بن نون إلى أريحا حيث نزلا فـي بيت امرأة بغي اسمها "راحاب"، وكان هذا البيت يقع على سور المدينة ويطل علـى الخنـدق المحيط بها من الخارج. وقد ساعدتهما راحاب لأنها كانت تحفظ أخبار المنجزات التي حققتها جماعة موسى عليه السلام من وقت الجهر بالدعوة والخروج من مصر حتى وصـولهم إلـى الأردن أمام أريحا. ثم أن يشوع بعد أن استعلم من رجليه المذكورين عن الأحوال في أريحـا عبر نهر الأردن بقواته وأتى لحصارها. ونجد في الفصل السادس من سفر يشوع أن أسـوار أريحا تسقط عند هتاف يرتفع من جند يشوع في أعقاب مناورات دامت عدداً من الأيام قام بها هؤلاء الجند حول المدينة (وكانت راحاب بطبيعة الحال مع مساعديها يرقبون من بيتها علـى السور كل ما يفعله جند يشوع). ولا حاجة بنا للتأكيد على أن المسألة كانت عبارة عن اتفـاق جرى بين يشوع وبين جماعة من أريحا كانوا يؤمنون بالمبادئ التي قامت ثورة موسى عليـه السلام من أجل تحقيقها، وكانت راحاب صلة الوصل بين هاتين الجهتين. وقد تفاهمت راحاب مع عميلي يشوع على الخطة التي كانت تؤدي إلى قيام "عشائرها" المذكورة في الفقرة 23 من الفصل السادس الآنف الذكر بفتح أبواب المدينة عند سماع هتاف جند الأسباط في نهاية تلـك المناورات. وقد تكرر هذا الأمر في طروادة المدينة التي كانت تقهر اليونان وتستعبدهم. وكان حصان هؤلاء اليونان الذين هاجموا المدينة إخوتهم المستعبدين فيها. إذ من المستبعد، بالوسائل المتوفرة في تلك الأزمنة، أن يكون الحصان بالشكل والحجم الموصـوفين بالإسـطورة، وأن يستطيع الطرواديون نقله سالماً إلى مدينتهم دون أن ينتبهوا إلى من زعمَ بأنهم اختبـأوا فيـه. فنظامهم العبودي كان حصاناً جاهزاً يختبئ فيه عدد أكبر بكثير من العدد الذي يمكن أن يختبئ في ذلك الحصان المزعوم وذلك دون أن يثيروا انتباه أحد، فهم جـزء مـن نظـام المدينـة العبودي، ودون الحاجة، بطبيعة الحال، إلى بذل أي جهد لنقلهم إلى داخل المدينة.

ومما يسترعي الانتباه في أخبار التوراة حول استيلاء الموسويين على عدد من المـدن في سيناء وجنوب الأردن، عندما تصف التوراة مثلاً في الحادي والثلاثين من سفر العدد كيف

استصفوا ثروات مدين وسبوا أطفالها ونساءها بعد أن قتلوا ذكورها وأحرقوها، نقول أن مما يسترعي الانتباه هو أن هذه الجماعات ما كانت تستقر في تلك المدن بعد إبادة أهلها بدلاً من إحراقها فتعود بهذا إلى الحياة المدنية التي كانت تحياها في مصر والتي طالما حنت إليها كما تخبرنا بهذا التوراة أيضاً في أكثر من موضع. ومثل هذه الظواهر تفسر جيداً بقولنا أن الصورة هي غير ما تعطيه للوهلة الأولى أخبار التوراة عندما لا نمحصها ولا نستجلي خلفياتها: لقد كانت هناك ثورة امتد لهيبها من سيناء إلى جنوب الأردن فأريحا ثم بقية أرض فلسطين بالتالي، كانت هناك سلسلة من الانتفاضات قام بها، كما رأينا أمثلته أعلاه، المستضعفون في كل مدينة، من أرقاء وأمثالهم، وكان قوم موسى يشجعونهم ويساعدنهم عندما كانوا يقتربون في مسيرتهم من مدنهم. فمدين مثلاً كان قد التجأ إليها موسى قبل الجهر بدعوته وتزوج ابنة أحد شيوخها شعيب الذي تذكر لنا التوراة أنه كان معجباً جداً بحركته وأنه قدم إليه النصائح في موضوع إدارة وقيادة جماعته.. فلا بد إذن أن يكون هذا الزعيم المديني (وهو مذكور بين الأنبياء) من المصلحين الذين كانوا يقودون في مدنهم معارضة النظام العبودي: إنه احتضن موسى وألجأه قبل الجهر بدعوته مدة دامت بضع سنين فلا بد خلال ذلك من أن يكون الاثنان قد بحثا سوية وناقشا مسألة القهر الذي تنزله الإمبراطورية العبودية المصرية بالمستضعفين من الناس في كل تفرعاتها في المنطقة، في مصر وسيناء والأردن وفلسطين وكل أرض امتدت إليها. وبالتالي فإنهما انضجا عقيدة واستراتيجية الثورة ضد نظام هذه الإمبراطورية. ولا بد أيضاً من أن يكون أتباع شعيب قد شاركوا الموسويين، بعد خروج هؤلاء من مصر ومجيئهم إلى سيناء، في تقويض النظام العبودي لمدينتهم، أو بالأحرى لا بد من أن يكون الشُعَيبيونَ هم البادئون في الانتفاض على سادة مدينتهم بنتيجة وحدة عقيدتهم مع الموسويين الذين أتوا لمساعدتهم، فجرت في النتيجة الأمور مجرى الثورة العميماء المدمرة. والتوراة تشير بشكل خاص إلى قتل الملوك (إلى قتل سادة الرقيق) وإلى إحراق قصورهم، وهذا ما ينسجم تماماً مع الصورة التي نقدمها هنا.

نستخلص مما سبق أن الذي جرى في تلك الأيام ما كان صراعاً بين فئة خاصة هي فئة اليهود (أو الإسرائيليين أو العبرانيين) وبين مختلف أقوام سيناء وجنوب الأردن وفلسطين لامتلاك "أرض اللبن والعسل". وإنما كان صراعاً بين معسكرين اجتماعيين تحددا بثورة موسى عليه السلام في ظروف اختلال النظام في أكبر إمبراطوريات جملة المجتمعات الإنسانية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، في الإمبراطورية الفرعونية وفي قلبها فلسطين (حيث بلغ الأمر الحد الذي طمعت فيه قوى بدوية، كاللوبيين وأقوام البحر الفلسطينيين وكل مما هب ودب من الطامعين في ثروات مصر بالذات فحاولوا غزوها):

المعسكر الأول: ويضم الموسويين وكل الفئات المسحوقة بنظام الرق في الإمبراطورية المصرية، وخاصة منها سيناء وجنوبي الأردن وفلسطين. وكانت الفئات الفعالة تتمثل بالموسويين والمستضعفين من سكان المدن التي كان يمر بها أو يقترب منها أولئك الموسويون. لقد كانت عقيدة ذلك الكفاح العقيدة الثورية الموسوية.

المعسكر الثاني: سادة العبيد في الإمبراطورية وأعوانهم، وهم بطبيعة الحال دوماً الأقلية تجاه جماهير المسحوقين بنظامهم.

الكيان الموسوي العربي

بلغت ثورة موسى عليه السلام حدودها النهائية عند وفاة يشوع بن نون. وقد قام بنتيجتها شكل من اتحاد مدن محررة من نظام الرق يمتد من مدين في سيناء، ويمر في جنوبي الأردن في ادوم ومؤاب وعمون، ثم في فلسطين حيث لم يتجاوز غرباً مجدو وجنوباً الخليل وشمالاً الجليل الشرقية (أي أن الاتحاد بقي في المرتفعات الشرقية والأغوار من فلسطين). وكان الموسويون مع من كان ينضم إليهم باستمرار من المجاهدين المؤمنين الآتين من مختلف أقوام المنطقة يشكلون حاميات لمدن الاتحاد تنتشر بحسب أسباطهم حول هذه المدن وفقاً للتقسيم الذي نقرأه في فصول سفر يشوع: من الفصل الثالث عشر وما بعده. وذلك مع ملاحظة أن دخول المدن المذكورة ممنوع على جند الأسباك الذين اقتصرت واجباتهم على الدفاع عنها خارج أسوارها، وهذه عادة كانت معروفة في تلك الأزمان. وقد أقام يشوع مقره العام في جِلْجال قرب أريحا ومع سبط ونصف كاحتياطي عام وقوة ضاربة، إضافة إلى سبط اللاويين الذي قلنا أنه كان يشكل كتيبة المقر العام التي تقوم بمختلف الخدمات المادية والمعنوية للجماعة كلها. ونشاهد مثل هذه الترتيبات، ولكن بشكل أكمل وعلى نطاق أوسع، في فتوحات الثورة الإسلامية العظمى. فكانت الفسطاط مثلاً في مصر مقراً عاماً لقيادة الجند المجاهد في مصر ومثلها الكوفة والبصرة وغيرها من الأمصار التي كانت تنتشر في القطاعات العسكرية الإسلامية ويقوم فيها المجاهدون. يقول الطبري في تاريخه: "وانتهج خلفاء بني أمية في بلاد الشام نهجاً جعلوا به كل مصر من الأمصار في هذه البلاد لقبيلة معينة (القبيلة هنا وحدة عسكرية في التحشدات الإسلامية: من عندنا) فكان جند قنسرين في غالبيتهم قيسية، أما حمص فكانت غالباً يمانية، وكانت كلب وجذام على دمشق". فنرى إذن أن المسألة كانت في الأساس للضرورات العسكرية الدفاعية وما كانت لاقتسام أرض "موعودة" بين أناس "موعودين". فسكان مدن الاتحاد الآنف الذكر هم من الأرقاء وأشباههم من المستضعفين الذين حررتهم ثورة موسى من نير الأسياد القدماء، كما أن الأسباط (الأجناد) الحماة لمدن هذا الاتحاد هم من سكان الإمبراطورية المصرية من مختلف أقوامها: منذ البداية عندما نظمهم موسى عليه السلام في مصر وحتى يشوع بعد أن انضم إليهم من انضم من الثائرين على

نظام العبودية. ونجد في نتيجة هذه الثورة الكبيرة، ربما لأول مرة في التاريخ، بروز مجتمع إنساني لا يقوم بشكل عام على العصبية القبلية وإنما يقوم على مصلحة إقليمية في وحدة نفسية هي عقيدة إنسانية متقدمة نسبياً. فالأسياد وأتباعهم كانوا وحدهم القبليين، أما الأرقاء وأشباههم مع جماعة الموسويين فكانوا بطبيعة الحال خليطاً من مختلف أقوام المنطقة (مختلف قبائل المنطقة التي نمت فيها الروافد الأولى التي التقت فيما بعد لتشكل الأمة العربية، مختلف أقوام الأهليلج الخصيب الموصوف أعلاه وأقوام وادي النيل). ولنلاحظ أن هؤلاء الموسويين بعد أن أبادوا نظام طبقة الأسياد تركوا، بحسب ما جاء في الفصول الأولى من سفر القضاة، للمستضعفين ولكل من لم يقاوم من سكان مدن الاتحاد المار ذكره دعوتهم، حرية البقاء على عقائدهم القديمة لقاء جزية يؤدونها، تماماً كما فعل المسلمون الفاتحون فيما بعد. "فالأرض الموعودة" هي أرض حرية أولئك الناس، وما كان الفتح يعني فتح الباب للتملك، فالملك لله وحده في كل الأديان والنحل، وإنما كان يعني فتح الباب إلى تلك الأرض وإلى الزمن حيث يتحرر فيهما الإنسان. ولكن كهنة التوراة، ككل الكهنة في كل أشكال الوثنيات التي تعقب الثورات وتجمدها، يقلبون معاني الفتح إلى فتح الأبواب لاقتسام تركة الثورة وتحويلها إلى اقطاعات تسكب في أفواه الإقطاعيين فقط اللبن والعسل على مرأى من الجياع مشتهي كسرة الخبز. إن إقطاعي التوراة بعد أن جمدوا ثورة موسى فسروا بشكل غيبي تلك التدابير الأمنية الآنفة الذكر وزعموا أنها أوامر إلهية لحصر تقسيم الأرض بين الأسباط وحرمان الآخرين الذين لا ينتمون إلى تنظيماتهم التي سموها يهودية، ثم حصر منافع هذه الأرض بهم وبزلمهم وحرمان بقية اليهود من "حصصهم" وفق ذلك التقسيم الجائر.. أي أنهم، الكهنة وشركاءهم، نَصبوا أنفسهم أسياداً جدداً على يهود مستضعفين فصلوهم تعسفاً عن بقية مواطنيهم، من الأسباط ليجعلوا هؤلاء جنداً يحمون بهم اقطاعاتهم بعد أن نشروا بينهم خرافة انتمائهم إلى جنس وهمي، إلى "شعب الله المختار"!..

وقد أتى بعد يشوع عهد القضاة الذي كان يشبه النظام الجمهوري أو نظام الخلفاء غير الملوك (المنتخبين وليس بالوراثة). وكان الاتحاد المذكور، المحاصر بالأعداء الوثنيين من كل جهاته، بين مد وجزر في هذا العهد من الناحيتين المادية والعقائدية: كان في حروب مستمرة مع جيرانه، ينتصر تارة وينهزم تارة أخرى، كما كانت عقائد الموسويين فيه تختلط بالعقائد الوثنية مرة وتتطهر على يد نبي مرة أخرى، إلى أن انقضى هذا العهد بقيام الملكية. أما فيما يخص الموقف الرسمي للإمبراطورية المصرية من هذه الأمور التي طرأت في سيناء والأردن وفلسطين فكان موقف العجز في بداية الأمر لانشغال القادة برد غزوات البدو اللوبيين وأقوام البحر المذكورين فيما سبق من البحث. وبعد استتباب النظام في عهد رعمسيس الثالث وخلفائه وقفت سلطات الإمبراطورية موقف الحياد من تلك الصراعات التي نحن بصددها هنا:

اعترفت هذه السلطات على الأخص بالاتحاد المذكور الذي قلنا أن رعاياه هم من كانوا عبيـداً وأشباه عبيد. وما كان هذا الاعتراف هو الأول ولا الأخير من نوعـه فـي الإمبراطوريـات العبودية. نقرأ في قصة الحضارة لديورانت مايلي: "تروي إحدى القصص المتواترة اليونانيـة خبر فتنة صماء اندلع لهيبها في مصر واستولى فيها العبيد على إحدى المديريات، وظلت فـي أيديهم زمناً طويلاً كانت نتيجته أن الزمن، الذي يجيز كل شيء، أقر امتلاكهم إياهـا. ولكـن النقوش المصرية لا تذكر شيئاً قط عن الفتنة". فهذه الحركة التي أغفلتها آثار الفراعنة فانتقلت أخبارها بتواتر رواياتها الشعبية حتى وصلت إلى اليونان لا بد من أن تكون ثورة كبيرة على نظام العبودية ليتذكرها الناس ويتداولوا قصتها كل تلك العصور الطويلة. فهل هي يـا تـرى حركة موسى عليه السلام وما آلت إليه من قيام ذلك الاتحاد الآنف الذكر؟ إن فلسطين والأردن وسيناء كانت على الدوام أجزاء من الإمبراطورية العبودية المصرية. كانت مديريات في تلك الإمبراطورية. فإن لم تشر تلك القصة إلى حركة موسى فهي على كل حال تشير إلى واحـدة من عديدات كانت أخبار الثورة الموسوية تجمل حكاياتها كلها، وهي أيضاً مثل إضافي علـى تضامن المستضعفين وثوراتهم في تلك العصور للتحرر من نظام الرق، كما هي بشارة لهؤلاء المستضعفين بإمكان انتصار ثوراتهم وتحررهم فتناقلوا أخبارها كل تلك الحقب الطويلة مـن التاريخ.

وبعد، فقد رأينا أعلاه الموقع المتميز للأقوام السامية والمصرية على الأهليلج الخصيب وفي وادي النيل. فهذا الإقليم الغني المعتدل ساعد على نشوء وارتقاء المشاعات البدائية الأولى في بادئ الأمر، ثم على تقدم هذه المشاعات إلى طور العبودية بارتقاء وسائلهم حيـث غـدت مناطقهم في النتيجة سوقاً تلتقي فيه بضائع العالم ليتبادلها البشر ولتسير منه أيضاً لتوزع فـي مختلف أقاليم الأرض المعروفة حينذاك: كانت موزعاً عالمياً منذ أقدم العصور. وكانت مناطق الساميين والأقوام الأخرى التي اختلطت بهم حول الأقـسام الوسـطى والجنوبيـة للأهلـيلج الخصيب وفي وادي النيل تتميز بكثافة الحركة الاقتصادية فيها لوقوعها المباشر على الطـرق البرية والبحرية العالمية. فبرزت فيها قبل غيرها الحضارات الإنسانية الأولى في منطقة جملة المجتمعات الإنسانية للبحر الأبيض المتوسط. فتكاثف فيها الإنسان واشتد تفاعل أقوامـه فيمـا بين بعضها بعضاً، وتشابكت علاقاته: حضارات العيلاميين والسومريين والآكديين والبابليين، وحضارات أقوام الجزيرة العربية، والحضارات الفرعونية في وادي النيل، وحضارات أقـوام سورية وفينيقية. وكانت العلاقات الإنسانية على اختلافها، وفي أساسها العلاقات الاقتـصادية تتطور بطبيعة الحال بتطور وسائل الإنسان. وفي أثناء هذا التطور كانت تقع كالعادة الأزمات في النظام العام لجملة المجتمعات الإنسانية، كما كانت هذه الجملـة تـصاب بـالجمود، بـل بالتقهقر، في أحوالها بسبب عجز النظام العام القائم فيهـا عـن ملاءمـة الظـروف الماديـة

والروحية الطارئة. فكانت لذلك تشتعل الثورات من آن إلى آخر هنا وهناك فيها، ثـم تعـود لتستأنف مسيرتها في التقدم نحو مراحلها العليا عندما تتصحح العلاقات بشكل ملائم بين الناس في كل قوم وبين مختلف أقوامها. وقد كان الصراع بين الضعفاء والأقوياء، بين سواد النـاس المحرومين وقلتهم المحظوظة، يشكل أعم أشكال الصراع وأخطرها أثراً على مسيرة الجملـة الإنسانية. وقد أخذ قادة المجتمعات منذ أقدم العصور باعتبارهم هذا النوع من الصراع و بذلوا كل عنايتهم لمنعه أو على الأقل للحد من أثره بكل الوسائل التي تتراوح بين القمـع الـدموي وبين تخفيف وطأة الأقوياء على الضعفاء. إننا نقرأ في قصة الحضارة لديورانت عند الـتكلم عن السومريين مايلي: "وبعد عام 3000 ق.م تروي السجلات المكونة من ألواح الطـين.. إن ملك لكش، أوروكاجينا، كان مصلحاً ومستنيراً، أصدر المراسيم التي تحرم استغلال الأغنيـاء للفقراء واستغلال الكهنة لكافة الناس. وينص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجـب أن لا يدخل بعد اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب أو يستولي على ضريبة الفاكهة.. وكان مما يباهي به أنه وهب شعبه الحرية". ويقول حمورابي في مقدمة قوانينه الشهيرة: "..أنا حمورابي، الأمير الأعلى، عابد الآلهة، لكي أنشر العدالة في العالم، وأقضي علـى الأشـرار الآثمين، وأمنع الأقوياء، من أن يظلموا الضعفاء، وأنشر النور في الأرض، وأرعى مـصالح الخلق..". وفي بردية في المتحف البريطاني اسمها حكمة امنحوتب نقرأ: "لا تطمع فـي ذراع من الأرض، ولا تعتد على حدود أرملة، وخذ خبزك من بيدرك". إلا أنه كانـت هنـاك تلـك السلسلة من الثورات الاجتماعية الكبرى التي نشير إليها دوماً هنا في بحثنا والتي أشرنا إلـى أنها أسست للبناء الأخلاقي للإنسان وهي ثورات التوحيد التي قادها الأنبياء فـي مجتمعـات مختلف روافد الأمة العربية: من أور إبراهيم الخليل إلى مصر موسى عليه السلام ففلـسطين السيد المسيح فحجاز نبينا صلى الله عليه وسلم، وما بينها من ثورات, فهذه كلهـا اسـتهدفت تحرير الإنسان من العبودية ودفع جملة المجتمعات الإنسانية نحو طور التعـارف والتعـاون والتكامل والتكافل بين الناس. نكرر ونقول أنها كانت حلقات متتابعـة لسلـسلة واحـدة مـن الثورات التي قامت في أثناء مسيرة روافد أمتنا نحو الالتقاء في مجرى تاريخي واحد تحقـق بانتصار الثورة الإسلامية العظمى.